حكمة و حكماء

إذا كانت حقيقة التأمل بالصمت، فهل في الكلام حقيقة؟ هل حديث أوشو و المسيح و غيرهم من المعلمين الصادقين مثل أحاديث نشرات الأخبار و التحاليل السياسية رغم أن للجميع اللغة نفسها ؟

عندما يتحدث أحدهم بالحقيقة الصادقة فإن كلامه يخترق كسهم قلبك و يسكن أعماقه .

الحقيقة هي الشيء الأكثر بساطة و الأكثر وضوحاً في هذا الوجود... أوقعت حقيقة الحقيقة هذه الفكر الإنساني في مشكلة، فهو غير شغوف بكل واضح بسيط، ذلك لأن الفكر بحقيقته العميقة ما هو إلا الاستكبار الإنساني ولا يروي غباء هذا الأخير سوى التحديات البلهاء القادمة من الخارج البعيد... يزداد انجذاب الفكر و تعلقه بشيء ما كلما ازدادت صعوبة تحقيقه و كلما ازداد بتسببه للتعب

و العذاب، فالفكر مستعد للذهاب إلى أبعد النجوم دون أن يبالي بالذي سيحققه من ذلك، فهو يرى ألا علاقة لهذا بالموضوع .

عندما عاد إدموند هيلاري من رحلته إلى لهملايا حيث كان أول إنسان يتمكن من الصعود إلى إيفيريست أعلى قممها انشغلت به وسائل الإعلام العالمية و أرادت أن تعرف ما الذي اختبره و ما الذي ربحه في هذه الرحلة التي فقد المئات حياتهم فيها من قبله... احتار هيلاري في أمره و ساد صمت لدقيقة كاملة لم يتمكن خلالها من قول شيء، إلا أنه قال أخيراً « لا شيء، إنه مجرد تحد يواجه الإنسانية و كان كافياً لأخاطر بحياتي لأجله... لم أختبر شيئاً و لم أربح شيئاً . »

ما الذي يوحيه إليك تخيل إدموند هيلاري يقف على إيفيريست وحيداً، لا يمكن أن يوحي بشيء سوى الحيرة والحماقة، فلم يمكث هناك سوى دقيقتين كان خلالهما عرضة للموت في الثلوج الأبدية.

يعطينا هذا التصرف فكرة عن الفكر الإنساني وأعماله، حيث يترك السهل و القابل للتحقيق و يلاحق البعيد الذي يشق عليه تحقيقه إضافة إلى أنه عديم الحاجة أو المنفعة... البعيد و غير المفيد هو غذاء الأنا الوحيد، أما ما هو بسيط و بمتناول الأيدي فلا يثير شيئاً داخله، هذا ما جعل الملايين من سكان الأرض يفقدون وجودهم بترحالهم في طول العالم و عرضه كأمثال ماركو بولو وكولومبوس، و منهم من أراد هزيمة العالم كالإسكندر الكبير لكنهم نسوا أمراً واحداً مهماً و هو لو أنهم عرفوا أنفسهم لما ولدت داخلهم هذه الرغبة لهزيمة العالم.

بينما هو في طريقه إلى الهند سمع اسكندر الأكبر بشخص غريب الأطوار و هو ديوجين الذي كان يعيش على جانب الطريق... سمع الاسكندر العديد من القصص عن ديوجين الذي كان أسطورة في عصره حيث تمكن من العيش عارياً .

قد يكون سهلاً و مألوفاً في الهند لكنه ليس كذلك في سواها، فقد عاش آلاف الرهبان اليانيين عراة هناك، وهذا ما يفسر عدم انتشار تلك الديانة خارج الهند... انتشرت البوذية في العديد من المناطق الآسيوية كالتيبت، الصين، اليابان و كوريا إضافة إلى الهند، أما اليانية Jaina و رغم أن مؤسسها المهافير Mahavira كان معاصراً لبوذا فلم تتمكن خلال القرون الخمسة والعشرين الماضية من الذهاب خارج الهند بسبب العري .

و لكن يجب أن يكون ديوجين أكثر شجاعة من المهافير فقد أمضى حياته في اليونان عارياً تماماً... كانت كل ممتلكاته تتألف من مصباح قديم يبقيه مضاءً لأربع وعشرين ساعة، و كلما التقى أحدهم يقرب مصباحه قريباً جداً من وجهه و لك أن تتخيل مقدار التذمر و الشكوى .

و عندما يسأل عن ماذا يحاول البحث في وجوه هؤلاء كان يقول « أحاول أن أجد إنساناً حقيقياً؛ إنساناً بسيطاً

وصادقاً، أبحث عن إنسان لا يرتدي أقنعة؛ إنسان ما زال كما ولدته الطبيعة؛ أبحث عن إنسان كأنه ولد للتو .

يوم وفاته اجتمع حوله جمع من المريدين و سألوه « بحثت طيلة حياتك عن شيء واحد فقط، فهل وجدت إنسانك الطبيعي، البسيط و البريء ؟ »

فأجاب «أرجو ألا تسألوا أسئلة محزنة دافعة على الكآبة، كل ما أسطيع قوله عن جميع من قابلتهم أنهم لم يسرقوا مصباحي !!»

أوقف الاسكندر جيشه و قال أريد أن أرى ديوجين .

كان أول سؤال وجهه ديوجين له هو أول سؤال على كل عاقل أن يسأله لنفسه، لم يضيع الحكيم ثانية واحدة و سأل «تريد هزيمة العالم بأسره ولكن ماذا عنك ؟ بعد أن تهزم العالم، هل ستجد متسعاً من الوقت لتعرف نفسك ؟ و هل أنت متأكد من الغد، هل أنت متأكد من اللحظة التالية ؟ »

لم يسبق للإسكندر أن قابل رجلاً كهذا، لقد هزم ملوكاً و أباطرة عظاماً لكن ديوجين مختلف تماماً... أجاب الاسكندر بعينين تتجهان إلى الأرض« لا أستطيع القول بأنني متأكد من اللحظة القادمة لكنني أعدك بشيء: بعد أن أهزم العالم فأتمنى أن أستريح مثلك تماماً.»

كان ديوجين في حمامه الشمسي الصباحي علي ضفة النهر محاطاً بعدة أشجار جميلة فضحك عالياً ...

أحياناً ما تشعر بأن صدى ضحكات هؤلاء لا زال يتردد في أسماعك لأنهم لم ينقشوا آثارهم على الماء... ديوجين وأمثاله هم أنصار الأبدية في هذا العالم .

شعر إلكسندر بالذنب و سأل « لم تضحك ؟ »

فقال ديوجين « إذا كنت قادراً على الاستراحة دون أن أهزم العالم، فما الذي يمنعك أنت ؟ النهر واسع بما فيه الكافية و يتسع لاثنين، و إذا أردت مكاني فهو لك و يمكنني أن أجد لي مكاناً آخر. إذا أردت الراحة فاسترح

الآن، و إلا، عليك أن تتذكر بأن هذا مستحيل بعد التأجيل. »

قال ديوجين الحقيقة و لكن بالنسبة لمن هو في رحلة استكبار و غرور فالحقيقة أمر بسيط و واضح... أن تستريح على ضفة النهر لا يغذي غرورك و استكبارك بشيء، فما الذي تحققه بذلك ؟ و من الذي ستهزمه ؟

يتخذ الناس النجاح، المال و القوة مقياساً لتحديد نوعية حياتهم و لا نعلم بأنه لا يوجد طريقة لقياس النجاح إذا تعاملنا مع الواضح البسيط، ما الواضح و البسيط سوى مقبرة غرورنا و استكبارنا...

علينا أن نتذكر دائماً بأن الحقيقة سهلة، واضحة وبسيطة ووحدها اللاحقائق هي المعقدة، فإذا كنت معتاداً على جمع و تسويق الأكاذيب فعليك التحلي بذاكرة جيدة، أما إذا كنت من أنصار الحقيقة الحقيقية فلا تحتاجها على الإطلاق... الأكاذيب كبيرة و معقدة لدرجة أنها

تحتاج حواسيب حية نسميها ذواكر و الحقيقة غاية في البساطة لدرجة أنها ليست بحاجة لأن تقال .

اعتاد لي تسو Lao Tzu في نزهة صباحية يومية على الأقدام ليشهد شروق الشمس، كان يخرج إلى رابية صغيرة مجاورة لقريته يعتبرها أجمل مكان لرؤية الشروق.

سأله أحد الجيران يوماً « أأستطيع الذهاب معك ؟ »

فأجاب « أما أن تأتي معي فلا يمكن، لا أملك الطريق ولا أملك الجبل كما أنني لا أملك الشروق أيضاً... يمكننا أن نذهب جنباً إلى جنب و لكن تذكر، أنت وحيد و أنا وحيد و لا يمكن قول شيء و لا حتى كلمة.»

كان الجار قد عرف لي تسو لمدة طويلة لذلك وافق على ما طلب... و لكن رغب أحد ضيوف الجار مرافقته في نزهته مع الحكيم، فقال الرجل لضيفه « لا يوجد عند لي تسو سوى شرط واحد: عليك أن تكون وحيداً و ليس حشداً ... اللغة ممنوعة فعليك ألا تقول شيئاً، و بعد ذلك لا أعتقد بأنه سيمانع.»

لن يمانع الحكيم بالطبع و لكن إلى متى سيستطيع هذا الضيف التذكر ؟ عندما بدأت الشمس الجميلة شروقها من ضباب الصباح نسي الضيف كل ما سمعه من مضيفه . قال جملة واحدة اعتقدها طبيعية مسموحة « يا له من شروق رائع !!» ثم تذكر بأنه وحيد و عليه ألا يقول شيئاً ، فالمجنون وحده من يتحدث و هو وحيد .

عاد الثلاثة إلى القرية، و عند وصولهم إلى المنزل قال لي تسو لجاره «أخبر ضيفك ألا يأتي ثانية فهو مفرط في الثرثرة.»

اعتبرت جملة بسيطة كهذه ثرثرة بنزهة صباح استمرت لساعتين، لا يزال لي تسو محقاً فهذا الضيف يحاول الجدال و المحاورة، فقد قال « أحاول التعبير عن مشاعري لا غير...» لكن الحكيم أجاب « كنت موجوداً أيضاً واختبرت الشروق و جماله، غمرتنا جميعاً الفرحة العارمة نفسها، غنت الطيور و تفتحت الورود، لدي قلب و لست أعمى، أهنتني بقولك شروق جميل... أتعتقد بأنني لا

أستطيع فهم الجمال، إضافة إلى أنك نسيت وعدك... أنت رجل لا يمكن الاعتماد عليه . »

غريبو الأطوار مثل لي تسو و ديوجين هم البشر الحقيقيون في هذا العالم، و لم يتعرفوا على الحقيقة من خلال هزيمة العالم أو غزو الفضاء؛ لم يتعرفوا عليها عن طريق تسلق إيفرست، بل ببساطة جلسوا صامتين دون أن يفعلوا شيئاً فيمكن للعشب أن ينمو بمفرده دون مساعدتك، عندما تأتيك الحقيقة بكامل حريتها و براءتها فإنها تمضي عميقاً إلى أعمق مركز في وجودك، فالحقيقة ليست فكرة لا بدعة فكرية بل هي من أصل الوجود .

نعم بالتأكيد، لن يبقى الإنسان كما كان بعد اختبار الحقيقة الصادقة ، فقد استقرت كالسهم في أعماق قلبه فكيف له أن يبقى الشخص ذاته ؟ فقط فكر بإنسان أعمى أمكن علاج عينيه و بدأ يرى النور و الألوان فهل يمكن أن يبقى الشخص نفسه قبل و بعد النور ؟ سيكون شخصاً مختلفاً بالتأكيد .

من الممكن ألا تعلم بأن ثمانين بالمئة من اختبارات الحياة تأتي عن طريق العينين و تتقاسم الحواس الأربع الباقية العشرين المتبقية... ليست مصادفة أن يكون من فقد عينيه الأكثر إثارة للتعاطف من غيره .

دون إدراك المسببات يحيا الإنسان على فطرته الطبيعية والاجتماعية... يختبر الإنسان الأعمى عشرين بالمئة فقط من حياته أما الثمانين الباقية فهي غير موجودة... لا ألواناً و لا صور؛ لا شروقاً و لا فراشات تطير؛ لا جبالاً عليها ثلوج أبدية و لا سماءً تملؤها النجوم و لا جمالاً للشروق و لا جمالاً للغروب... لقد اختصرت حياته إلى حدها الأدنى .

في الحقيقة لا تكون اختباراتك اختبارات ما لم تعمل على تغييرك و إلا فهي غيوم في فكرك ليس إلا... عندما تشعر بالحقيقة فإنها ستعمل على تغيير كامل حياتك و سيصل أثرها الإيجابي إلى كل فعل تقوم به و إلى كل موقف تتخذه .

الطريقة الوحيدة لتعلم فيما لو عثر أحدهم على الحقيقة أم لا هي أن تبدأ عيناه؛ تعابيره و كل شيء فيه بالتأثير بك بطريقة مختلفة تماماً عما تأثرت بأي وجود آخر أو بأي إنسان آخر... قد لا يتحدث بشيء لكنه يغمرك بصمته، قد لا ينظر إليك لكن يستحيل عليك أن تنسى عينيه اللتان تأسرانك و تلاحقانك كظلك .

تبدو كلماته و كأنك قائلها و لا يمكن للمعاجم شرحها أو ترجمتها، لكنك لست معجماً... عندما يتحدث بوذا أو أوشو فهما يستخدمان الكلمات التي نستخدمها و لكن بطابع آخر و بمعنى مختلف من الصفاء و المصداقية و من الحب و العطف الذي لا تحمله الكلمة بالضرورة .

أما إذا كنت مستعداً و قابلاً للتغيير؛ إذا تمكن السهم من اختراقك و إصابتك في القلب فستفتح فيك نافذة كانت مغلقة ربما لملايين الحيوات، و ربما تستطيع اختبارات عظيمة من الدخول إليك عبر تلك النافذة الصغيرة عاملة على تغييرك بكليتك .

أمضى المهافير أربعة أشهر من فصل الأمطار في إحدى المدن التي اعتادت على وجود لص محترف دعاه الناس فيما بعد « اللص المعلم » فلم يتمكن أحد من إلقاء القبض عليه... مع مرور الأيام أصبح دخول اللص المعلم إلى منزل أحدهم عاملاً مسبباً للهيبة و المفاخرة لأنه لم يعتد سوى على دخول بيوت الملوك و الأغنياء، و لا حاجة به للفقراء ومنازلهم ... كان اللص المعلم يدرب ابنه ليكون خليفة له في الفن الذي اعتبر معلماً فيه .

قال المعلم اللص لابنه يوماً « عليك أن تصغي لشيء واحد مهم و هو ألا تصغي لكلمة واحدة من هذا الرجل، أي المهافير، حتى لو مررت بالصدفة ووجدت أنك ستسمع شيئاً فاغلق أذنييك لأنه قادر بكلمة واحدة على تدمير كل جهودي التي أبذلها لجعلك خليفة لي .»

لقد دربه لأعوام طويلة و يخشى رجلاً كهذا يمكنه بكلمة واحدة تدمير العمل برمته... ربما لم يستمع هذا الشاب للمهافير من قبل و ربما أنه لم يفكر بذلك مطلقاً ،

إلا أن كلام الوالد ولد فيه فضولاً كبيراً... ذهب الشاب في إحدى الأمسيات و استمع لجملة واحدة لكنه شعر بالرعب فلم يكن والده رجلاً عادياً، فالقتل هي عقوبته الوحيدة فيما لو علم الوالد بما حصل، لكنه سمع الجملة و هرب .

في تلك الليلة كان الوالد في قصر الملك حيث سرق جواهراً و هرب... ألقي القبض على الابن الشاب الذي لم يشترك بالعملية؛ ألقي القبض عليه عائداً من مجلس المهافير و قد سمع جملة عديمة المعنى تدور حول أهل الجنة و صفاتهم الغريبة حيث سمع بأن أقدامهم تتجه إلى الخلف و ليست كأقدامنا... يسيرون إلى الأمام لكن أقدامهم تتجه إلى الخلف .

ألقي القبض على الشاب عوضاً عن والده بسبب التشابه بينهما رغم اختلافهما في العمر لكن للظلام اعتباراته... استخدمت الشرطة إحدى طرقها لجعله يعترف .

أعطي كمية كبيرة من الكحول ليشربها جعلته يغط بنوم عميق... استيقظ عند منتصف الليل فوجد نفسه في قصر جميل محاطاً بنساء لم يرى بمثل جمالهن و قد حضرت لأجله أفخر الأطعمة فاعتقد أنه مات و أدخل إلى الجنة .

لكنه تذكر قول المهافير بأن أقدام أهل الجنة تتجه إلى الخلف فنظر حوله فرأى كل شيء طبيعياً فأدرك أنه من الممكن أن يكون قد اعتقل، فقد قالت له النساء الجميلات أخبرنا بكل ما فعلت فأنت في غرفة استقبال الجنة لتعطي تفصيلاً عن حياتك قبل الدخول .

أوشك على تقديم كشف مفصل عن حياته لكنه توقف فجأة وقال لنفسه « إلهي لو لم أستمع لتلك الجملة لانتهيت اليوم، فرغم أنني لم أرتكب سرقات كبيرة إلا أنني ارتكبت أشياء أصغر، إنه كل ما تدربت عليه...» لذلك بقي صامتاً .

سؤل ثانية و ثالثة و رابعة لكنه احتفظ بجواب واحد« لم أفعل شيئاً، أنا رجل صمت و لست رجل فعل ... أنا متأمل» و ذلك لم يكن أمام الشرطة سوى إطلاقه عند الصباح .

لم يذهب إلى البيت بل ذهب إلى المهافير وقال « أنقذت حياتي جملة واحدة سمعتها لا علاقة لها بشيء، أصبحت حياتي منذ اليوم ملكاً لك و لم تعد ملكاً لوالدي... إذا أمكن لجملة واحدة إنقاذي فيا له من تحول إذا استطعت سماع كلامك كاملاً و فهمه، و أنا على استعداد لفهم حتى صمتك غير القابل للكلام . »

فقال المعلم « سأقبلك و لكن بشرط واحد: أن تذهب وتخبر والدك بما حدث، هذا واجبك الأول فما يقوم به والدك غباء و حماقة و يحتاج من ينقذه. »

شعر الشاب بالرعب لكن توجب عليه الذهاب... لأول وهلة صدم الوالد عند سماع القصة لكنه سرعان ما أدرك أنها الحقيقة... و كانت النتيجة أن بدأ المعلم اللص و ابنه التحول على يد الرجل .

لا تعمل آثار أناس كالمهافير على تحويل الأشياء فحسب، بل إنها قادرة على التغيير الكلي و تعطي كلماتهم باستمرار معان جديدة؛ تعطي عطوراً و يرسل صمتهم رسائلاً .

إن ما حدث مع اللص و ابنه يمكن أن يحصل مع إي إنسان لديه قابلية صادقة للتحول لكن عليه أولاً أن يتحرر من أطماعه الاستكبارية و يشرع برحلة فهم عميق لنفسه .

تعني معجزة الفهم العميق للنفس أن تفهم أسرار الوجود العميقة، و لكن لا يعني الفهم هنا ما ألفناه في ثقافتنا ومعارفنا المستوردة و إنما يعني الإحساس و التلمس؛ يعني أن تحيا الاختبار و ترقص معه و يعني أن تغنيه... عليه ألا يصبح معرفة و معلومات بل يجب أن يصبح حياتك كاملة... يجب أن تذوب باختبارك و يذوب بك .

و لكن لسوء الحظ هناك فئة ممن هم تجار للألغاز؛ ممن يتسولون بطريقة أو بأخرى؛ ممن يجمعون الحثالات من النصوص و المخطوطات، من أناس آخرين و من كل قديم

كاسد و فاسد ثم يصنعون من كل هذا غطاءً لجهلهم... هؤلاء هم الفئة الأكثر غباءً في هذا العالم لكنهم حكامه، فقد أكسبتهم معارفهم قوة جعلتهم قادرين على ذلك .

على من يريد فهم سر الوجود أن يتجاوز فكرة القوة برمتها؛ عليه أن يتجاهل و جوده في هذا العالم كأنه غير موجود، و عندها فقط يفاجأ بأن كل الأبواب قد فتحت .

ليست الجنة في مكان آخر و بعيد... الجنة الآن عندما تنفتح جميع أبوابك أمام الوجود... في هذه اللحظة و على هذه الأرض تكون قد دخلت جنة المعلمين .

إن أخطر المجرمين في هذا العالم هم الذين علمونا بأن هناك جنة فوق السماء حرمونا و حرموا أنفسهم من الجنة التي بين أيدينا في كل لحظة .